عدد مزدوج

دراسات

مجلة فصلية محكمة، تعنى بالمقاربات الاجتماعية والإنسانية تصدر عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات العددان ٢٢-٢٣
سبتمبر-أيلول/ديسمبر-كانون أول ٢٠٠٨

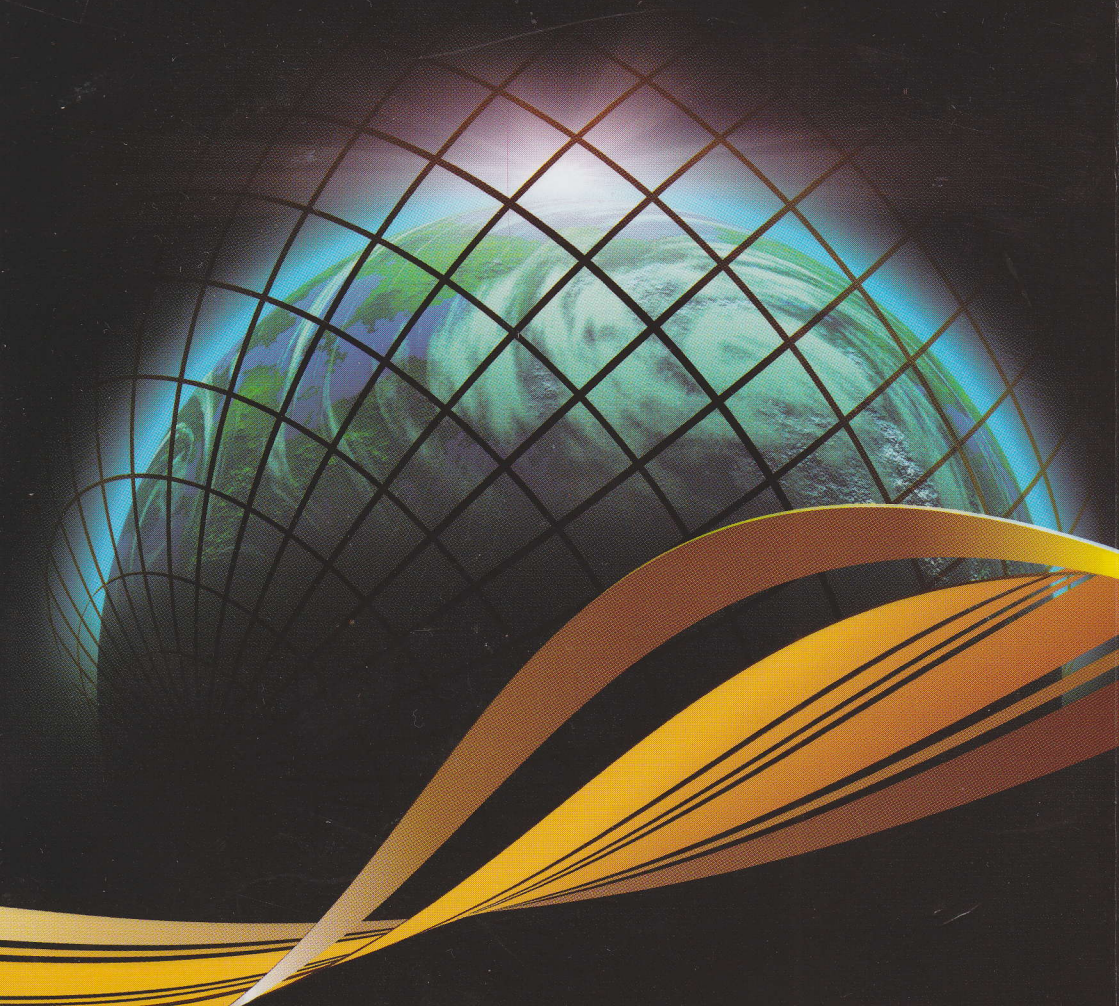

الاغتراب خارج حدود الإيديولوجيا

قراءة معاصرة في وحدة التكوين النفسي والاجتماعي للمفهوم

أ. د. علي أسعد وطفة *

يعد مفهوم الاغتراب Alienation من أكثر المفاهيم الإنسانية استخداماً وشيوعاً في مجال العلوم الإنسانية، ومن أكثر المفاهيم قدرة على وصف مظاهر البؤس الإنساني والقهر الاجتماعي عبر علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع، وهو فوق ذلك يشكل مدخلاً منهجياً مميزاً تعتمده العلوم الإنسانية في تحليل الظواهر الاستلابية في واقع الحياة الاجتماعية[1]. وإذا كان مفهوم الاغتراب يُعتمد كأداة تحليل منهجية في دراسة القهر الذي تفرضه الأوضاع الاغترابية للفرد في سياق تفاعله مع معطيات وجوده الاجتماعي، وهو وفقاً لهذا التصور يأخذ بأهمية التفاعل الجدلي بين الاجتماعي والنفسي في دراسة ظواهر الضياع والاستلاب عند الإنسان المعاصر.

ويشهد مفهوم الاغتراب تطوراً كبيراً في ذاته يتجاوب فيه مع الطابع المتجدد للفكر الإنساني في ضوء التحولات الإنسانية الجديدة المعاصرة في مختلف ميادين الحياة وتجلياتها. وفي دائرة هذا التجدد الفكري للمفهوم تطالعنا مفاهيم فرعية جديدة كالاغتراب الذاتي والاستلاب الاجتماعي والاغتراب السيكولوجي. ويلاحظ اليوم أن التيارات الفكرية الجديدة المعنية بالمفهوم تحاول أن توازن اليوم بين الرؤى الماركسية لهذا المفهوم وبين التصورات التي يقدمها التحليل النفسي في دراسة ورصد أبعاد الحياة الاغترابية عند الإنسان.

وإذا كانت نظرية ماركس الاغترابية تشكل منطلق التحليل الكلاسيكي في ميدان الضياع والاستلاب والاغتراب فإن الأبحاث السوسيولوجية والسيكولوجية الجديدة حول المفهوم ذاته لا تقل أهمية وخطورة. لقد ألحّ كارل ماركس وأكد على أهمية الجوانب الاقتصادية في مفهوم الاغتراب. وهذا التأكيد أدى في غالب الأحيان إلى إغفال وتهميش الجوانب السيكولوجية والإنسانية لهذا المفهوم[2]. ولكن الأبحاث في مجال علم النفس حول مفهوم الاغتراب عملت وبصورة مستمرة على تحقيق التوازن وإعادة الاعتبار إلى الجوانب السيكولوجية للمفهوم في دائرة التوازن والتناغم من المعطيات السوسيولوجية. وفي ظل التطورات الفكرية الجديدة فإن التيارات الفكرية الحديثة تعمل باستمرار على تحقيق المصالحة والتوازن بين مفهوم الاغتراب الماركسي ومفهوم الاغتراب في التحليل النفسي.

لقد أدى تأكيد ماركس على أهمية الجوانب الاقتصادية في مفهوم الإنتاج إلى إهمال الجوانب الإنسانية لهذا المفهوم حتى عند ماركس نفسه. فالإنتاج الإنساني لا يقف عند حدود الاقتصاد فحسب، بل يرمز إلى الفعالية الإنسانية برمتها، ويجسد قدرة الإنسان نفسه على توليد المعطيات المادية والنفسية لوجوده.

فالإنسان كما يقول هنري ليفيبفر Henri Lefebvre: «يؤثر في الطبيعة ويتأثر بها وهو

* كلية التربية – جامعة الكويت.

عندما يغيرها يتغير معها في الآن الواحد، وبالتالي فإن العلاقة النشطة بين الإنسان والطبيعة لا تنطوي على خفايا وأسرار لأن هذه العلاقة تتم عبر العمل بصورة مركزية، فالإنسان يستطيع عبر العمل أن يتجاوز حدود الحياة العفوية المباشرة في الطبيعة، فهو ينتج ويبدع أشياء متعددة، وهذه الأشياء تلبي حاجاته، ولكنها في الوقت نفسه تولد حاجات جديدة دون انقطاع، وهي في الوقت نفسه تعمل على تعديل الحاجات القائمة، وفي مجرى تحقيق الإنسان لذاته في عالم الأشياء، فإن هذا الحضور الذاتي لا يعني ضياعاً للإنسان واستلاباً له، بل يرمز إلى نمائه وازدهاره»(٣).

يرى أريك فروم، في هذا الخصوص، أن الإنسان ينتج في سياق حياته مظاهر إنسانية متعددة مثل: الاتصال الإنساني، والحب، والإبداع، وحرية اتخاذ القرار، وهي تجارب إنسانية مضادة لمفهوم الاغتراب. وهو في هذا السياق يعلن أن الفن يمثل النموذج الأسمى للفعل الإنساني بوصفه إنتاجاً إبداعياً يمكن الإنسان من تجاوز عملية الوضعية الاغترابية في اتجاه دلالات إنسانية مؤكدة لمبدأ الهوية وتحقيق الذات الإنسانية Realisation de soi.

هذه الرؤى حول مفهوم الإنتاج ودوره في تحقيق إنسانية الإنسان، أو بوصفه فعلاً إبداعياً يؤسس لتصور حول مفهوم الاغتراب ذاته، فالاغتراب هو حالة تضع الإنسان خارج ذاته، تحت تأثير نسق من العوامل التي تعيق إنتاجية الإنسان، وتعطل عملية الإبداع لديه، وتدمر إمكانياته في التعبير الحر عن وجوده، فتمنع عليه ازدهاره وتفتحه الإنساني.

تعريف المفهوم:

ظهر مفهوم الاغتراب Alienation لأول مرة في عام ١٨٣٧ في استخدامات فالريه Falret ليدل به على مظاهر الاضطراب العقلي، وبدأ هذا المفهوم فيما بعد يوظف في مجال علم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس الاجتماعي(٤). وينطوي المعنى الأول لهذه الكلمة على معنى نقل الملكية من شخص إلى آخر إكراهاً. وقد استخدم الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو مفهوم الاغتراب بمعنى تحول الإنسان إلى عبد للمؤسسات الاجتماعية والنماذج السلوكية التي أنشأها، وذلك في سياق تطور التاريخ الإنساني.

ويرى ماركس في الاغتراب العملية التي يتحول فيها الإنسان إلى حالة تشيؤ حيث يستعبد من خلال العمل، ويصبح بقوة عمله لغة تباع في الأسواق. فالعمل برأي ماركس هو الذي طور الإنسان، وهو الذي زج به في أكفان العبودية وزنزانات القهر. فالعمل كما يرى ماركس يخلق الإنسان ويطوره ولكنه يمتص في الوقت نفسه كل قواه ويستعبده(٥).

هذا ويحدد مولفان سومان Melvin Seeman خمسة أبعاد أساسية لمفهوم الاغتراب هي: الحرمان من السلطة، غياب معنى الحياة، وغياب للمعايير، ومن ثم غياب للقيم، وإحساس بالغربة عن الذات(٦). ويعني هذا المفهوم بصورة عامة كل أشكال القهر ومشاعر البؤس والشقاء التي يعاني منها الإنسان في الحياة.

فالإنسان كينونة جوهرها العقل والحرية والعمل والانتماء وكل ما من شأنه أن يمس هذه الأبعاد الأساسية لجوهر الشخصية يدفع الشخصية إلى حالة اغتراب واستلاب. فالاغتراب في حدود ما ننظر إليه ونوظفه في هذه المقالة هو: الوضعية التي ينال فيها القهر والتسلط والعبودية من جوهر الإنسان، وهو الحالة التي تتعرض فيها إرادة الإنسان أو عقله للاغتصاب والقهر والاعتداء والتشويه، وبالتالي فإن أدوات الاغتراب هي مختلف أدوات القهر، وكل ما من شأنه أن يعاند نمو الشخصية الإنسانية وازدهارها وتفتحها. وفي هذا

السياق يمكن القول بأن مظاهر الاغتراب تتبدى في أشكال أحاسيس مفرطة بالدونية، واللامبالاة، والقهر، والضعف، والقصور والسلبية، والانهزامية، وتلك هي البوابة المنهجية لمفهومنا عن اغتراب الشخصية.

ويشير مفهوم الاغتراب إلى الحالات التي تتعرض فيها وحدة الشخصية للانشطار، أو للضعف والانهيار، بتأثير العمليات الثقافية والاجتماعية التي تتم في داخلها، أو في داخل المجتمع. ومن هذا المنطلق فإن العقد النفسية، وحالات الاضطراب النفسي، أو التناقضات تشكل صورة من صور الأزمة الاغترابية التي تعتري الشخصية. وهذا يعني في النهاية أن مفهوم الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة.

ومفهوم الاغتراب هو الحالة أيضاً التي يتعرض فيها جوهر الشخصية للقسر والإكراه. فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، لنوع من التشويه والاغتصاب تحدث عملية اغتراب وتشويه ووفقاً لهذه الصيغة يمكن القول إن مفهوم الاغتراب في الشخصية يتحدد بالجوانب التالية:

- حالات عدم التكيف النفسي التي تعانيها الشخصية: عدم الثقة بالنفس، القلق المستمر، الرهاب الاجتماعي، المخاوف المرضية.
- غياب الإحساس بالتماسك والتكامل الداخلي في الشخصية.
- حالة ديمومة العقد النفسية التي تعتري الشخصية: عقدة أوديب، عقدة الخصاء، عقدة النقص، عقدة الاضطهاد... إلخ.
- ضعف أحاسيس الشعور بالهوية مثل: الشعور بالانتماء، الشعور بالجهد المركزي، الشعور بالحب، الثقة بالنفس، الشعور بالقيمة، غياب الإحساس بالأمن.

يقول أريك فروم إن الاغتراب «نمط من التجربة يعيش فيها الإنسان كشيء غريب، ويمكن القول إنه أصبح غريباً عن نفسه، إنه لا يعود يعيش نفسه كمركز للعالم وكمحرك لأفعاله، ولكن أفعاله ونتائجها قد أصبحت سادته الذين يطيعهم أو الذين قد يعبدهم»[٨]. إن الفكرة السائدة في تفكير فروم عن الاغتراب هي فقدان النفس لذاتها، وفي هذا الفقد يكتسب ذاتاً ليست هي ذاته الحقيقية أو ما يجب أن تكون عليه حقاً.

فالإنسان تخلق له أوثان ويطلب منه أن يسجد لها، وفروم يعد الخضوع للصنم أو الوثن جوهراً «إن الوثن يمثل قوة حياتية في شكل مغترب» والإنسان يصنع لنفسه أصناماً ثم يقوم بعبادتها.

في عملية الاغتراب، عند أريك فروم، يتنازل المرء عن نفسه إزاء استسلامه لقيم المجتمع السائدة خاصة في المجتمع الصناعي الحديث، يقول في كتابه الخوف من الحرية: «إن الفرد يكف عن أن يصبح نفسه إنه يعتنق نوعاً من الشخصية المقدم له من جانب النماذج الحضارية، ولهذا فإنه يصبح تماماً شأن الآخرين وكما يتوقعون منه أن يكون»[٩].

فمفهوم الاغتراب معقد يرتكز إلى منظومة من العمليات الأساسية للعملية الاغترابية، ويمكن لنا في هذا السياق تحديد أربعة أبعاد أساسية في بنيته:

الإكراه والتسلط:

العبودية، التسلط، الإكراه، مفاهيم مركزية في تحديد الوضعية الاغترابية للإنسان، فالإنسان المستلب المغترب إنسان فقد حريته في الجوهر، لأن الاغتراب لا يكون إلا تغييباً

السياق يمكن القول بأن مظاهر الاغتراب تتبدى في أشكال أحاسيس مفرطة بالدونية، واللامبالاة، والقهر، والضعف، والقصور والسلبية، والانهزامية، وتلك هي البوابة المنهجية لمفهومنا عن اغتراب الشخصية.

ويشير مفهوم الاغتراب إلى الحالات التي تتعرض فيها وحدة الشخصية للانشطار، أو للضعف والانهيار، بتأثير العمليات الثقافية والاجتماعية التي تتم في داخلها، أو في داخل المجتمع. ومن هذا المنطلق فإن العقد النفسية، وحالات الاضطراب النفسي، أو التناقضات تشكل صورة من صور الأزمة الاغترابية التي تعتري الشخصية. وهذا يعني في النهاية أن مفهوم الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة.

ومفهوم الاغتراب هو الحالة أيضاً التي يتعرض فيها جوهر الشخصية للقسر والإكراه. فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، لنوع من التشويه والاغتصاب تحدث عملية اغتراب وتشويه ووفقاً لهذه الصيغة يمكن القول إن مفهوم الاغتراب في الشخصية يتحدد بالجوانب التالية:

- حالات عدم التكيف النفسي التي تعانيها الشخصية: عدم الثقة بالنفس، القلق المستمر، الرهاب الاجتماعي، المخاوف المرضية.
- غياب الإحساس بالتماسك والتكامل الداخلي في الشخصية.
- حالة ديمومة العقد النفسية التي تعتري الشخصية: عقدة أوديب، عقدة الخصاء، عقدة النقص، عقدة الاضطهاد... إلخ.
- ضعف أحاسيس الشعور بالهوية مثل: الشعور بالانتماء، الشعور بالجهد المركزي، الشعور بالحب، الثقة بالنفس، الشعور بالقيمة، غياب الإحساس بالأمن.

يقول أريك فروم إن الاغتراب «نمط من التجربة يعيش فيها الإنسان كشيء غريب، ويمكن القول إنه أصبح غريباً عن نفسه، إنه لا يعود يعيش نفسه كمركز للعالم وكمحرك لأفعاله، ولكن أفعاله ونتائجها قد أصبحت سادته الذين يطيعهم أو الذين قد يعبدهم»[٨]. إن الفكرة السائدة في تفكير فروم عن الاغتراب هي فقدان النفس لذاتها، وفي هذا الفقد يكتسب ذاتاً ليست هي ذاته الحقيقية أو ما يجب أن تكون عليه حقاً.

فالإنسان تخلق له أوثان ويطلب منه أن يسجد لها، وفروم يعد الخضوع للصنم أو الوثن جوهراً «إن الوثن يمثل قوة حياتية في شكل مغترب» والإنسان يصنع لنفسه أصناماً ثم يقوم بعبادتها.

في عملية الاغتراب، عند أريك فروم، يتنازل المرء عن نفسه إزاء استسلامه لقيم المجتمع السائدة خاصة في المجتمع الصناعي الحديث، يقول في كتابه الخوف من الحرية: «إن الفرد يكف عن أن يصبح نفسه إنه يعتنق نوعاً من الشخصية المقدم له من جانب النماذج الحضارية، ولهذا فإنه يصبح تماماً شأن الآخرين وكما يتوقعون منه أن يكون»[٩].

فمفهوم الاغتراب معقد يرتكز إلى منظومة من العمليات الأساسية للعملية الاغترابية، ويمكن لنا في هذا السياق تحديد أربعة أبعاد أساسية في بنيته:

الإكراه والتسلط:

العبودية، التسلط، الإكراه، مفاهيم مركزية في تحديد الوضعية الاغترابية للإنسان، فالإنسان المستلب المغترب إنسان فقد حريته في الجوهر، لأن الاغتراب لا يكون إلا تغييباً

للحرية. فالإنسان حر عندما يستطيع أن يمتلك زمام نفسه ويسيطر على وسطه الشخصي الفيزيائي والاجتماعي، ويكون حراً عندما يكون قادراً على إبداع أشياء توضع في خدمته وتشكل أدواته في أن يكون أكثر حرية وأكثر قدرة على التحكم بوجوده ومستقبله. وعلى خلاف هذا التصور إذا كان الإنتاج الإنساني يأخذ طابعاً استعبادياً مضاداً لحرية الإنسان، عبر عمليات القهر والتسلط، فإن الإنسان يتحول إلى كائن مستلب مغترب مهزوم بكل المعايير والدلالات الحقّة في مفهوم الاغتراب، ولذلك فإن غياب المشاركة في السلطة أو في القرارات التي توجّه حياته ووجوده يشكل واحداً من أهم عوامل اغترابه واستلابه.

اللا انتماء:

يشكل اللا انتماء ركناً أساسياً من أركان مفهوم الاغتراب، فأفراد الطبقة العاملة، على سبيل المثال، لا يستطيعون التأثير في الحياة الاجتماعية التي تعد إنتاجاً منظماً للطبقة البرجوازية التي تضع الطبقة العاملة في خدمتها، وهنا في هذه الحالة لا يكون إنتاج الإنسان (إنسان الطبقة العاملة) في خدمته بل يتحول إلى شيء خارجي يستعبد الإنسان ذاته، فالطبقة العاملة تنتج القوة الاجتماعية والاقتصادية، وهذه القوة تتحول من جديد عبر الطبقة البرجوازية إلى قوة قهر وتدمير وعبودية ضد الطبقة العاملة التي أنتجتها، وهذا يعني أن العمل هنا لم يعد إنسانياً بل هو قوة خارجية قاهرة، ففي مجتمع مستلب (كما هو الحال في داخل طبقة مجتمعية مستلبة) لا يشكل الانتماء الاجتماعي أداة لتحقيق الذات والهوية، فمفهوم الاغتراب يقوم هنا على التناقض الاجتماعي الذي يمثل في تقسيم العمل وتجزئة الأدوار الاجتماعية وتشتيت التجربة الإنسانية. ومن هذا المنطلق يتجلى الاغتراب هنا في صورة صراع بين الأدوار، ولا سيما مستوى الصراع بين الانتماء إلى العائلة أو الدولة، بين الانتماء إلى الأمة وبين الانتماء إلى الطبقة الاجتماعية، بين وعي الذات ووعي الآخر، بين المصلحة الاجتماعية ومصلحة الطبقة، بين الأنا والآخر، وهذه التناقضات الاجتماعية تعطل عملية تحقيق الذات الاجتماعية، كما أنها تمنع عملية المشاركة في الفعالية السياسية للإنسان المحطم.

فالانتماء إلى جماعة أو طبقة أو مجتمع يتضمن وضعية من وضعيات التجانس الاجتماعي، وبالتالي فإن تحقيق الذات الاجتماعية عملية تقوم على أساس بناء علاقة ايجابية مع الآخر، وقد يكون هذا الآخر جماعة أو مجتمعاً أو شخصاً أو طبقة. وإذا كانت هناك تناقضات حقيقية في طبيعة هذه الانتماءات فإن هذه التناقضات تمنع الشخص في نهاية الأمر من الانتماء إلى نفسه، أي تشطره، وبالتالي فإنها تمنعه من امتلاك هوية خاصة، أي الشعور بالكيان الواحد الذي يستجمع تجارب الفرد، أو الشعور بامتلاك الإنسان معنى خاصاً لحياته الإنسانية.

الوعي المزيف:

يشكل الوعي بالنسبة للإنسان طريقة في الوجود ومنهجاً في الكينونة. والوعي هو التنظيم الديناميي للحياة النفسية إنه الحالة أو الكيفية التي يتمكن الإنسان بموجبها من أن يصبح موضوعاً لذاته، أي أن يجعل الفرد من نفسه موضوعاً للمعرفة وأن يكون بالتالي عبر وعيه بذاته سيداً لنفسه. ومن هنا فإن أي تناقض بين الواقع والتجربة من جهة، وبين الوعي

الذاتي من جهة أخرى، يشكل أحد أهم عوامل الاغتراب الإنساني. لقد أدرك ماركس هذه الحقيقة منذ البداية، وبين أن التصورات الخاطئة المشوهة أو هذه التي تنقطع عن الحقيقة والتجربة تشكل أحد أهم العوامل الكابحة لعملية تطور الإنسان وتعميق إنتاجيته الخلاقة وتضعه في دائرة الاغتراب. لقد بينت دراساته في «الإيديولوجية الألمانية» أن الوعي المزيف هو مجموعة من التصورات الخاطئة عن الواقع التي تؤدي في نهاية الأمر إلى تزييف الواقع نفسه وتشويه معطياته وإلى تعطيل التطور الخلاق للإنسان.

ونحن في واقع الأمر عندما نقابل بين الوعي والوجود فإنه يمكن لنا أن نميز بين الوعي الذي يتوافق مع معطيات التجربة، وهو شكل من أشكال الوعي الحقيقي، وهذا الذي يتعارض مع التجربة المعاشة وهو صيغة أخرى للوعي المزيف، فالوجود تجربة معاشه دون أن تكون كل تجربة داخلة بالضرورة في حقل الوعي، وهذا ينسحب على الأفراد والجماعات. فالوعي المزيف يشكل حالة من أكثر حالات الاغتراب حضوراً وأهمية في الحياة الإنسانية. فالعلماء يقابلون بين الوعي والوجود، أي بين المعرفة والواقع، ويحاولون اختصار المسافة الفاصلة بينهما فيكون الوعي قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة المعاشة، وذلك بمساعدة أدواتهم العلمية والمعرفية.

فالفيلسوف يحلل حقل المعرفة أو الوعي ويدرس نظام التصورات الخاصة بوجود الإنسان، وذلك بالعلاقة مع مفهومه عن الإنسان مثل مفهوم الإنسان الكلي، وعالم الاجتماع يوازن بين التصورات عن الحياة الاجتماعية مع الحقيقة السوسيولوجية الواقعية، بما يسمح له ببناء نظريته الاجتماعية، كما أن عالم النفس أو عالم التحليل النفسي يقابل بين وعي الفرد كما يتبدى عبر تقصياته الإكلينيكية مع مفهوم الإنسان كما يراه عبر منظومته الفكرية، وهذا ما نراه عند فروم الذي قارن بين وعي الإنسان في المجتمع الرأسمالي مع مفهوم الصحة العقلية للفرد. وباختصار فإن هذا التباعد بين التجربة والمعرفة، أو بين الوعي والوجود، يوضح لنا مفهوم الاغتراب، بوصفه وعياً مزيفاً يمكن أن يقارن بالوعي الموضوعي، وهو شكل من أشكال الوعي الذي يتشكل من قبل ملاحظ خارجي ويرمز إلى حقيقة وجودية أو تحديد ذاتي للحقيقة الموضوعية.

الجمود والانقطاع:

يكون الإنسان مستلباً عندما لا يستطيع تجاوز الوضعيات النفسية والحالات الاجتماعية التي تحاصره وتحيط به. فالإنسان الذي لا يغير الأشياء ولا يتغير يقع في مستنقع الجمود والعدمية الاغترابية. وهذا يعني أن الإنسان الذي لا يؤثر في وسطه ولا يجدد في معالم وجوده هو إنسان يعيش حالة اغترابية إلى حد كبير. فالماركسية تفترض وجود نزعة أساسية نحو النمو الديالكتيكي عند الإنسان في اتجاه تجاوزات الوضعيات الآنية فوراً، ومن هذا المنطلق ومن أجل إزالة التناقضات التي تعترض سبيل هذا النمو الديالكتيكي عند الإنسان يعمل الإنسان على بناء أدوات جديدة وأشياء متجددة (مثل الأنظمة الاجتماعية الجديدة) وبهذه الطريقة عينها تعمل هذه الحركة الديالكتيكية على إشباع الحاجات المتجددة وهي في دائرة حركتها هذه تعدل هذه الحاجات وتغيرها في آن واحد.

فالإنسان كائن متغير وهو لا يبحث عن وضعية ثابتة نهائية، بل على خلاف ذلك يسعى إلى تحقيق حركة تغير دينامية ديالكتيكية في اتجاه أشكال جديدة من السلطة وأنماط متجددة من الانتماءات الاجتماعية، والإنسان المستلب هو الإنسان الذي يعيش حالة جمود

تمنعه من تجاوز نفسه والظرف الذي يحيط به، أي هذا الذي ينغلق على ذاته ولا يستطيع المبادرة إلى الانجاز والعقل، وبالتالي فإن الإنسان يعيش نسقاً من التناقضات الكبيرة في مختلف جوانب حياته ووجوده. ويمكن لنا في المستوى النظري أن نفترض أن هذه التناقضات توجد في أصل كل ممارسة إنسانية وفي كل عملية أو مرحلة من مراحل الإنتاج الإنساني بالمعنى الإنساني الواسع للكلمة.

والإنسان يمتلك نزعة سيكولوجية لتحقيق التوازن إزاء هذه التناقضات، وتتجلى هذه النزعة في منظومة من العمليات النفسية التي تفعل فعلها في تحقيق توازن الفرد وتماسكه إزاء التناقضات التي يواجهها. هذه العمليات النفسية تعمل على تحقيق التوازن بين تجربة الفرد وبين تصوراته العاكسة لهذه التجربة، وبمعنى آخر تحدث هذه العمليات توازناً حقيقياً بين وجود الفرد وذاته، كما أنها تعمل على تحقيق التوازن بين الهوية الفردية وصورة الفرد عن ذاته، وهذا ينسحب على مختلف التناقضات التي تفرض نفسها في حقل التجربة الإنسانية للفرد أي في مختلف الاتجاهات والمواقف والقيم الصادرة عن الفرد.

وتعتمل في ذات الفرد النزعة الاجتماعية جنباً إلى جنب مع النزعة التوفيقية. فالإنسان مفطور على نزعة الإبداع والتجديد والابتكار وتجاوز اللحظات الآنية في اتجاهات أرحب وأشمل تتجاوز الحالات الراهنة بوضعيات مستجدة. والإنسان يعيش حالة صراع مستمرة بين النزعة إلى التوازن والنزعة إلى التجديد والابتكار، وبالتالي فإن الصراع المركزي (توازن وابتكار) يدخل في صلب التناقضات المتداخلة والمتشابكة في اتجاهات أفقية وعمودية رئيسية وجزئية. فالتناقض بين تجربة الفرد الخاصة ووعيه بمعطيات هذه التجربة يستجمع في ذاته مختلف التناقضات الانفعالية والعقلانية التي تتجلى في الحب والحقد والكراهية والأمل والطموح والانفتاح.

خلاصة

يغطي مفهوم الاغتراب مختلف النشاطات الإنسانية والفعاليات الاجتماعية ومن هنا يجري التأكيد اليوم على الطابع الشمولي لهذا المفهوم الذي يتجاوز حدود النشاطات ذات الطابع الاقتصادي أو السياسي، وهذا يعني التحفظ على الموقف الماركسي حيث يتم توظيف مفهوم الاغتراب في التركيز على الجوانب الاقتصادية والسياسية للنظام الرأسمالي. إذا كان مفهوم الاغتراب يقارب الشرط الإنساني بالدراسة والتحليل، وإذا كان تحليل الظاهرة الاغترابية قد بدأ مع اللحظة التي بدأ فيها التساؤل يدور حول دور بعض الأنظمة الاجتماعية القائمة كالمجتمع الرأسمالي، فإن ذلك كله لا يمنع من التفكير في وضعية الفرد ومعاينة شروط وجوده الفردي والنفسي ومن ثم تحليلها من خلال مفهوم الاغتراب ذاته. وهنا يجب التأكيد على أهمية وحدة العوامل النفسية والاجتماعية بوصفها عوامل بنائية متكاملة في عملية الاغتراب.

لقد اعتمد الماركسيون مفهوم الاغتراب منطلقاً أساسياً لإدانة النظام الرأسمالي برمته. وهم مع ذلك لا يرفضون الجوانب الفلسفية لهذا المفهوم التي تتصل بمفهوم الإنسان ذاته وبغاياته الوجودية في الأصل، وبعبارة أخرى لا يمكنهم رفض العوامل الفردية والسيكولوجية في بناء مفهوم الاغتراب. وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة للتصورات الماركسية حول الاغتراب فإنه لا يمكننا أبداً أن ننكر أيضاً أهمية الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي تجد تقديراً أكبر في الفكر الماركسي. وفي كل الأحوال يتوجب علينا ألا نغلق

بوابات الفهم الخاص بمفهوم الاغتراب لأن هذا المفهوم يأخذ أبعاداً اقتصادية واجتماعية ونفسية تتصف بالتنوع والتعدد.

ومن الأهمية بمكان في هذا السياق أن ندرك أن الفهم «السيكوسوسيولوجي» (النفسي الاجتماعي) يمكننا من الكشف عن المسافة التي تفصل بين تجربة الفرد الخاصة وتجارب الجماعات التي ينتمي إليها. فمفهوم الاغتراب يصف لنا الشرط الإنساني ويساعد في تحليل حقل الانتماء الاجتماعي للفرد ويغطي في الوقت نفسه الفعاليات النفسية التي تعتمل في داخل الفرد. فالاغتراب مفهوم أداتي يمكننا من تحليل تأثير الشروط الخارجية والداخلية في تشكيل وعي الفرد وتوازنه النفسي، وبعبارة اختتامية يمكننا القول بأنه لا يمكن اختزال مفهوم الاغتراب إلى أحد أبعاده النفسية أو الاجتماعية، بل وعلى خلاف ذلك فإن هذا المفهوم يجد ماهيته وخصوصيته في وحدته الجدلية الجامعة ما بين النفسي والاجتماعي أو ما بين السوسيولوجي والسيكولوجي في دائرة خارج الدلالة الإيديولوجية، وبالتالي فإن الفهم الأعمق لدلالة هذا المفهوم لا يكون إلا بقراءة متأنية لنظام التفاعل بين العوامل النفسية والاجتماعية المولدة لمفهوم الاغتراب، وذلك بعيداً عن الصبغة الإيديولوجية التي مني بها في بعض النظريات.

الهوامش:

(١) انظر: علي وطفة: المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية: بحث في إشكالية القمع التربوي، عالم الفكر الكويتية، المجلد ٧٢، العدد الثاني، أكتوبر/ ديسمبر، ١٩٩٨، ص ٢٤١ – ٢٨١.

(٢) علي وطفة، الخلفيات التربوية المبكرة للاغتراب النفسي والعاطفي، التربية القطرية، مجلة تربوية فصلية محكمة، السنة ٢٨/ عدد ٣١، ديسمبر ٢٠٠٠، ص ١٠٨ – ١١٨.

(3) Henre Lefebvre, peur Connaitre la pensee de kart Marx, Paris,Bordas, 1948, P 119.

(٤) كمال دسوقي، ذخيرة تعريفات مصطلحات أعلام علوم النفس، المجلد الأول، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٨، ص ٧٧.

(٥) انظر: حسن محمد حسن حماد، الاغتراب عند أريك فروم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥.

(٦) Madeleine Grawitz: Lexique des sceinces, sociales, Dalloz, Paris, 1983, P 12.

(٧) علي وطفة، المظاهر الاجتماعية للاغتراب الإنساني، مجلة المعلومات (مركز المعلومات القومي)، العدد ٤٣، نيسان ١٩٩٦.

(٨) مجاهد عبدالمنعم، في الفلسفة المعاصرة، سعد الدين للطباعة والنشر، ط١، بيروت ١٩٨٤، ص ١٤.

(٩) أريك فروم، ثورة الأمل، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار الآداب، بيروت، (ص ١٥٠).